

## حياة الأخوين



### ١ - سعيد الشرتوتى

ويراعة فُجعت بفقد وحيدها      كالأم قد فُجعت بفقدٍ وحيدٍ  
كلُّ المصائب هيئاتٌ عندها      إلا المصيبةُ بالإمامِ سعيدِ

في التاسع عشر من شهر آب الفائت فجعت اللغة العربية بعلمٍ من  
أعلامها العالية ، الامام الكبير المغفور له الشيخ سعيد الخوري الشرتوتى ،  
رافع لواء الفصاحة والبيان في الزبوع السورية ، ومعزّز فن التأليف بما  
انشأه من الكتب الجمّة الغزيرة الفوائد على المدارس العامية

وهو أحد الافراد الذين تجود بهم فلتات الزمان حيناً بعد حين ،  
فيحدثون انقلاباً في ما تركه الأولون للآخرين

« حياة » — ولد صاحب الترجمة في بلدة شرتون نحو سنة ١٨٤٧ ؛  
وأبوه عبد الله بن ميخائيل بن الياس ابن الخوري شاهين الرامي . كان  
وهو صبي كثير الزيفان فسافة زيفانه الى قتل احدي قريباتي . وحديث  
الأمر انه كان لنا بين بيتنا وبيت عبد الله بلوطة جاءت بها مرّة الصغيرة  
ياسمين ابنة عم أبي ، وصعدت اليها تقطف البلوط ؛ فبصر بها سعيد  
فاتهرها ، فأبت النزول بحجة ان البلوطة ملك عمها ، فكان انه أسرع  
الى البيت وأتى بالبندقية المشوّة وأطلقها على الابنة فسقطت من عل  
لا حراك بها . . . تراوحت متردداً في ايراد هذه الحكاية ، فرأيت أن  
من الوفاء بالتاريخ ايرادها على حين انها ليست غباراً على حياة الفقيد  
لصغر سنّه حينذاك . فأرسله أبوه الى مدرسة عبيه ، حيث تلقن مبادئ  
العربية فقط ، ثم شرع بالمطالعة لنفسه بما فيه من الميل الى العلم . ودرس  
برهة في مدرسة عين تراز للروم الكاثوليك ، ثم عقد وأبي العزيمة على  
غشيان بغداد للتدريس فيها ، فجاءت الانباء بانتشار الوباء فيها فاثنيا ،  
وارتحل سعيد الى الشام حيث درس زماناً ، ثم هبط بيروت واشتغل  
عند اليسوعيين في العلوم العربية ، ونبغ وأجاد . فألف عندهم وتفتح وصحح  
طائفة من الكتب المفيدة . ولبث عندهم زماناً طويلاً ثم بعد ذلك درس  
بعض السنين الصف الأول العربي في مدرسة الحكمة المارونية فأتاح لي  
الحظ ان اكون من بعض تلاميذه . ثم استسلم الى الراحة متنكباً منابر

التدريس دون التأليف ، فانشأ وهو منزوٍ في بيته عدة تأليف ناضجة سيأتي الكلام عليها . وقد اشترى منذ عام يتتاً في « فرن الشباك » تحوطه قطعة من الرزق كان يدير زراعتها بيده . وما هي إلا أيام حتى أمت به حمى في المعدة أنجحت تاركة وراءها ألماً شديداً في رقبته من جهة الكتفين ، فأضعف الألم المستديم جسمه وهدت سلامة بنيانه

« من صفاته وأحاديثه » — من صفاته الرزانة والتروي واعتزال ضوضاء العالمين والتواضع والأنس ولطف الحديث ، ومن صفاته الاقتصاد وله أحاديث مأثورة يضيق المجال عن سردها ولا بأس بمحدث منها . حدثني مرة قال : زارني المغفور له الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية وكان الانكيز قد احتلوا مصر جديداً ، فسألته عن الخطة التي ينوي انتهاجها مع المحتلين ؛ فأجاب بالرغبة في معاكستهم فأشرت عليه بموالاتهم لما هم عليه من بسطة البأس والسلطان فتستفيد مصر من الموالات ولا تستفيد من المعاكسة : قال فأجابني الشيخ : أصبت واني فاعل كذلك

« علومه » — يمتاز صاحب الترجمة بعلوم الصرف والنحو وعلوم المعاني والبيان والبديع وبعلم اللغة وأساليب الانشاء ، وهو في كل ذلك صاحب الإمامة يؤخذ بقوله ويركن اليه وله في ذلك التأليف الجملة الجليلة التي طافت المدارس وتصدّرت في مكاتب الأدباء ، ولم يكن يعرف من اللغات أولاً سوى العربية وقد لجّ به الشوق الى تفهم الافرنسية وهو أبيض الناصية ، فأكبّ عليها ودرسها درساً يصل به الى الترجمة منها ، فوصل ، وترجم قوانين يوستينيانوس ونشرها في مجلة المقتطف . وقد نظم

الشعر رغمًا عن عدم انطباعه عليه فأجاد في بعضه من ذلك أبيات كتبها  
تحت صورته مع عائلته امرأته وبناته الثلاث قال :

رسمٌ يمثّلنا والشملُ مجتمعٌ      والعيشُ صافٍ وظلُّ الخيرِ ممدودُ  
وهذه الحالُ أقصى ما يؤمّلهُ      حيٌّ من الخلقِ بالآفاتِ مقصودُ  
لكنَّ فرقنا لا بدَّ واقعةً      يوماً فيفصلُ عن أثمارِ العودِ  
فَسألَ اللهُ جمعاً بعد تفرقةٍ      في جنّةٍ وجَميلُ العودِ محمودُ

وقد ازدادت هذه الأبيات اليوم مسحة من الجمال لانفراط الشمل  
بموت اثنتين من بناته الصبيّات وبلحاقه بهما

ومن نظمه قوله من قصيدة وداعٍ

وداعٍ لذيداتِ الحياةِ وداعكم      فليسَ على شاكي التفرّقِ من عتبِ  
يجرّعنا هذا البعادِ مرارةً      على قدر ما ذقنا الحلاوة في القربِ

« مؤلفاته والحكم عليها » - ان الدهر الآتي حكمٌ عدل في  
كتابات المنشئين ، ي طرح الغث ويبقي السمين ، فقد ينال زيد مثلاً في  
الكتابة والنظم صيتاً طنائاً لجأه عريض فيه أو لمال كثير عنده ، لا لبلاغة  
في كلامه ؛ حتى اذا مات ومات جيله ، أنصف الدهر في كتاباته العارية  
من سياج الجاه والمال ، فتناولها ومحامها . وقد يموت كاتب فقير فتبقى  
كتاباته على هام الدهر لبلاغتها وعلوّ طبقتها . أما سعيدٌ رحمه الله فأرى  
ان كتاباته من الخالدات . ومؤلفاته عديدة منها كتاب ( الشهاب  
الثاقب في صناعة الكاتب ) وهو عبارة عن رسائل في جميع أبواب  
المراسلة ، انشأها والنفوس الى مثلها ظمأى ، ولم يتحدّ فيها طريقة التصنع

والتكلف والسجع والكلام الكثير في المعنى القليل ، بل تحدى الانشاء المرسل من السهل الممتنع . وله رسالة انتقد بها كتاب النحو الذي وضعه يومذاك المرحوم احمد فارس الشدياق . وهو المصحح كتاب بحث المطالب في النحو ومعلق حواشيه ، والمصحح ديوان المطران جرمانوس فرحات وشارحه . ولم أر الشيخ مجيداً في تصحيح هذا الديوان لما فيه من المغالط الشعرية المتعددة والجوازات القبيحة

ومن مؤلفاته كتاب « المعين » للتلميذ والمعلم وقد أحسن في وضع هذا الكتاب لما فيه من الطرق الرحبية الموصلة الى مواطن الانشاء ؛ وقد اردف ( المعين ) بكتاب ( نجدة اليراع ) وهو كتاب جمع فيه الجمل المترادفة في وصف أمر أو شيء . وله كتاب ( حدائق المشور والمنظوم ) وهو مجموعة من أطايب الشعر والنثر على نحو ما هو عليه مجاني الأدب وهو جزءان . ومن فله تصحيح أغلاط كتاب الألفاظ الكتابية للمذاني ، وتصحيح ديوان ابن معتوق ، وترجمة قوانين يوستينيانوس ، ومقالات جمة من أحاسن الكتابات في المقتطف خصوصاً وسواه من المجلات والجرائد . وفي آخر المدة وضع كتاب ( مطالع الأضواء في مناهج الكتاب والشعراء ) وهو كتاب مدرسي في علوم المعاني والبيان والبديع ، وقد تبسط في هذه العلوم تبسطاً يكاد يكون مملاً . غير انه فاق على سواه من المؤلفين في هذا الفن بأنه أردف هذه العلوم الثلاثة بقوانين الانشاء من مثل الذوق وانتقاء اللفظ والمعنى والمطالعة والتمرين الى غير ذلك من الأبواب الجميلة التي لم يطررها مؤلف عربي سواه ، فجاء

كتاباً جليلاً للتعليم في المدارس ، وأردفه بكتاب في علم الخطاب ولم اقرأ  
بعد هذا الكتاب

يتضح مما تقدم أن جميع الكتب التي ألفها صاحب الترجمة وصححها  
مدرسية يستغني عنها المترسلون في العلوم العربية الأ معجمه المشهور  
واسمه « أقرب الموارد » . وهو حتى الآن أكمل معجم يصل بناشد  
الألفاظ الى ضالته عن أقرب سبيل وفي أسرع آن ، على حين اننا في  
عصر أصبحت به الكتاب تحطف الأوقات . وقد قرأه له أجل تقريظ  
صاحب السعادة عبد الله باشا فكري وزير المعارف في مصر سابقاً  
والمغفور له العلامة الشيخ محمد عبده

هذه حياة الشرتوني . فهي حافلة بالآثار العلمية الطيبة دالة على ان  
الرجل استعمل الزمن الذي جازه بالعمل المتواصل ، ولم يكن لسعيد من  
نظير في ذلك الأ المثلث الرحمت المطران يوسف الدبس الذي كان يعمل  
كل يوم سبع ساعات وغماً عن شيخوخته ومرأض بصره .

وان حياة كتلك الحياة لقمينة بأن تكون مثلاً وضاحاً لشبية هذا  
العصر ، فتعلم أن العلم لا يعطينا بعضه حتى نعطيه كلنا  
والآت التي عليك أيها الراحل الكريم كلمات الوداع الممزوجة  
بمواطف الاحترام ؛ وثق أن لك من سلامة بيانك ، ونصاعة برهانك ،  
وتقاء فصاحتك ، ومضاء بلاغتك حارساً أميناً على كتاباتك من نقد  
الناقدين ، وكفياً ضمينا على بقائها زاهية الى انقضاء العالمين



## ٢ - رشيد الترنوني

ان رشيداً أخو سعيدٍ لأبيه ؛ وُلد في بلدنا شرتون سنة ١٨٦٤ ،  
وأفضى الى ربه سنة ١٩٠٧ أي في روعة العمر ومعمان النشاط اذ لم يكن  
له من العمر سوى ثلاث وأربعين سنة  
تلقن مبادئ العربية والافرنسية في مدرسة مار عبده هرهرياً ،  
ودرس حيناً في مدرسة عين تراز ومدرسة عينطورة ، ثم انقطع لخدمة  
العلم عند اليسوعيين في بيروت ، فكان يدرس صف الخطابة في كليتهم ،  
ويحرر جريدة « البشير » وكان في خلال ذلك يؤلف ويترجم ويصحح  
الكتب المفيدة ، حتى كانت أواخر سنة ١٩٠٥ ، فهبط مصر لخدمة العلم

فقضى فيها سنة جاء بعدها للاصطياف في لبنان ، فأدركه المرض في منتصف الليل ، وفي صباح اليوم أجرى له الدكتور هاش عملية جراحية فلم تنجح ، وقضى بين قلوب تتفطر ودموع تتقطر . وكان جميل الصورة غض الإهاب كثير اللطف جميل العشرة وفير الحجة لمسقط رأسه وأوطانه ، وكان كأخيه نشيطاً ، يصرف أوقاته بالعمل . فانه مع انصرافه الى التدريس والصحافة طول حياته ، تمكن من تأليف بعض الكتب ، ولو أمد الله بحياته ، لكان من اكبر خدمة العربية ومن أقطاب العلم والأدب ، وله فضل كبير على فئة كبرى من الناشئة التي أخذت عنه ونهجت منهجه في طلاوة العبارة وتحدي الذوق فيها

وكان ضليعاً في اللغة ، علاماً في علوم الصرف والنحو والمعاني والبديع والبيان والخطابة . وكان شديد النفرة من الكتب القديمة لهذه العلوم لما فيها من التفاصيل الفارغة التي تذهب بوقت التلميذ وتخت من جلده وعزمه ، فشن على ذلك غارة شعواء وشمر عن ساعد الكد لتأليف سلسلة كتب في العلوم المذكورة على السياق الافرنسي . فوضع للصرف وللنحو سلاسل هي اليوم عمدة التدريس في المدارس الكبرى والصغرى في سوريا ، ولعلمها في مصر أيضاً ، ولو استطالت حياته لأتى بالكتب المنوية لعلوم البيان على الطراز المعلم ، وهذه السلاسل المذكورة خير ما ألف ويؤلف النجاة للتدريس

ومن تأليفه كتاب المراسلات نحاً فيه نحو أخيه سعيد في انشاء الرسائل المتنوعة ، ولكنه دون كتاب أخيه حجماً وجمالاً . اما الكتب

التي ترجمها عن الافرنسية فكثيرة جداً منها تاريخ لبنان القديم ، ورواية بحيرة قدس . وهو الذي صحح ونشر الكتب التاريخية التي وضعها مؤرخ عصره المغفور له البطريرك اسطفان الدويهي ؛ وله كتاب (تمرين الطلاب) وهو مجموع تمارين لابناء التحميل في الصرف والنحو وقد شاع استعمال هذا الكتاب لكثرة فوائده ، وله كتاب في المنطق لم ينشره وقد افاضت صحف البلاد في الكلام عنه بعد وفاته ، وقد رثاه الصديق الأديب الشاعر احمد افندي تقي الدين بقصيدة منها :

أبنات الهديل لا تدرى      يكاء الرشيد منسكبا  
واندي حظه وحظ فتى      عشق الكتب واصطفى الأربا  
شاحداً للرقى عزمه      في بلاد لا تُكرمُ الأدبا

ورثاه هذا العاجز بأبيات منها :

صُحفُ البلاد وكان مهيع هديها      صدعت بطاحن خطبه تيينا  
نبأ تطاير في البلاد فزهها      حسبه ملبوساً وكان يقينا  
أخذته أعلامُ الجبال بصيحه      سمعت لها في الهابطات رنيننا . . .  
لم تزدحم من حول نعشك ألسن      ألفت بغير ممالك التائينا  
وتراجع الادب له عنك لأنهم      رهوك يا أسد العرين طميننا  
خافوا سماعك ضعف قولهم وقد      كان الكلام اذا نطقت سميننا  
مسكينٌ ألقم الذي ابتمه      من سوف يرحم ذلك المسكيننا

أفاض الله عليه سجال رحمة وأحصاه بين أصحاب اليمين

محبوب الخوري الشرنوبلي

( لبنان )